



خطبة صلاة الجمعة 19 / 4 / 2019 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(ليس المؤمن بحقود)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 87 - 89]

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]

وأخرج الترمذي بإسناده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: فقَدْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فإذا هو بالبقيع، فقال: «أَكُنْتُ تَخَافِينَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَسُولُهُ؟»، قلت: يا رسول الله إني ظننتُ أنك أتيتَ بَعْضَ نِسَائِكَ، فقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ لَيْلَةَ التَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَغْفِرُ لَأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِ شَعْرِ غَنَمٍ كُلِّ»، وهي قبيلة كانت معروفة بأنها أكثر القبائل غنما.

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا كَانَ لَيْلَةُ التَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ أَطَّلَعَ اللَّهُ إِلَى خَلْقِهِ فَيَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِ، وَيُمْلِي لِلْكَافِرِينَ، وَيَدْعُ أَهْلَ الْحَقْدِ بِحَقْدِهِمْ حَتَّى يَدْعُوهُ».

وفي رواية عند البزار: «إِذَا كَانَ لَيْلَةُ التَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ لِأَخِيهِ»

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يرويهِ البخاري-: «إِنَّ أَبْعَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَفِيمُ». أي شديد الخصومة.

عنوان خطبة اليوم: ليس المؤمن بحقود.

أيها الإخوة:

تطالعنا ليلة الغد ليلة النصف من شعبان، وقد روى في فضلها من الصحابة رضي الله عنهم أبو بكر الصديق وأبو موسى الأشعري وأبو ثعلبة الخشني ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمرو وعائشة، قال المباركفوري في تحفة الأحوذى: (ورد في فضيلة ليلة النصف من شعبان عدة أحاديث مجموعها يدل على أن لها أصلاً... وهي مجموعها حجة على من زعم أنه لم يثبت في فضيلة ليلة النصف من شعبان شيء).

وقد كان التابعون من أهل الشام كخالد بن معدان ومكحول ولقمان بن عامر وغيرهم يعظمونها ويجتهدون فيها في العبادة، وعندهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها، كما ذكر ابن رجب في لطائف المعارف.

وسمعتهم -أيها الإخوة- بأن المغفرة في هذه الليلة المباركة عامة للطالبين، وبأن العطاء فيها كثيرٌ للسائلين، إلا اثنين حرّموا أنفسهما أجراها وخيرها وبرها، مشركاً وحقوداً مشاحنًا، وذلك لأن الحق قد يشوش القلوب، ويوغر الصدور، ويثمر ثماني موبقات:

أولها: الحسد، وهو أن يملك الحق على أن تمنى زوال النعمة عنه، فتغتمّ بنعمة تصيبه وتسرّ بمصيبة تنزل به، وهذا من فعل المنافقين.

والثاني: الشماتة، فتشمت بما أصابه من البلاء.

والثالث: الهجران، فتهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

والرابع: الاحتقار، وهو أن تعرض عنه استصغاراً له.

والخامس: آفات اللسان، بأن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره.

والسادس: الاستهزاء، بأن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

والسابع: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

والثامن: منع الحقوق، بأن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة. وكل ذلك حرام.

ومن أجل ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يجعل في دعائه قوله: «رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، واسئَلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي» [الترمذي]، وسخيمة الصدر أحقادها.

أيها الإخوة:

روى الإمام أحمد بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ تَعْلِيهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْعُدُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّلَاثُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ فَقَالَ إِنِّي لَأَحِثُّ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتُ! قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَهُومٌ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَهُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا حَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيْالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَخْتَفِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثُمَّ؛ وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَارٍ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعْتُ أَنْتَ الثَّلَاثَ مَرَارٍ فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِي بِهِ فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ! فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتُ!

قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتُ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا تُطِيقُ
إن سلامة الصدر من الأحقاد والأضغان سبب موصل لمغفرة الله ورحمته وعطائه. وكم قرأت في سير الأولياء ورأيت من أحوالهم بُعْدَهُم عن الأحقاد والشحناء والخصومات، فإن كنت ترجو الولاية -والأولياء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون- فصف قلبك من الأحقاد.

قال زيد بن أسلم رضي الله عنه: دخل على أبي دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلّل، فقيل له: ما لوجهك يتهلّل؟ فقال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلّم فيما لا يعنيني، أمّا الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً.

وجاء في حلية الأولياء: (كان أبو الخير الأقطع يقول: القلوب ظروف، فقلب مملوء إيماناً وعلامته الشفقة على جميع المسلمين والاهتمام بما يهمهم، ومعاونتهم على مصالحهم، وقلب مملوء نفاقاً، وعلامته الحقد والغل والغش والحسد).

وذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة عن القاسم بن عثمان الجوعي قال: (أفضل طرق الجنة سلامة الصدر).

وفي طبقات الأولياء لابن الملّقن: قال عبد الله الأنطاكي: (إنما هي أربع لا غير: عينك، ولسانك، وقلبك، وهواك، فانظر عينك، لا تنظر بها إلا ما يحل لك؛ ولسانك، لا تقل شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك؛ وقلبك، لا يكن فيه غل ولا حقد على أحد من المسلمين؛ وهواك، لا تهو به شيئاً من الشر، فإذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال فاجعل الرماد على رأسك فقد شقيت).

أيها الإخوة:

لعل امرءاً مسلماً ابتلي بالحقد في قلبه، والإحزن في صدره، فما علاجه قبل أن تفوته مواسم المغفرة وتدركه فجأة الموت وهو على حاله؟!.

والجواب: للحقد سببان إما أن يكون رجلاً ظلم رجلاً ولم يستطع المظلوم أخذ حقه فحقد عليه، وتمنى أن يقتص منه بنفسه أو أن تقتص منه الأقدار، وإما ألا يكون بينهما ظلم ولكن حُبث نفسٍ ومرضُها، فهي شحيحة بالخير على العباد تحقد على من أنعم الله عليه وأكرمه.

وينفع في علاج الحقد إذا كان سببه الأول -أي ظلم رجل لأخيه- أن يقلع المعتدي عن غيّه ويصلح سيرته، وأن يعلم أنّه لن يستلّ الحقد من قلب خصمه إلا إذا عاد عليه بما يطمئنه ويرضيه، وعليه أن يصلح من شأنه ويطيّب خاطره، وعلى الطرف الآخر أن يلين ويسمح ويتقبّل العذر وبهذا تموت الأحقاد وتحلّ المحبة والألفة.

وينفع في علاج الحقد إذا كان سببه الثاني -أي إن كان الحقد بسبب خبث نفسٍ الحاقِدٍ وشحّها بالخير لعباد الله تعالى- الأمور الآتية:

1- على الحاقده أن يكلف نفسه أن يصنع بالحقود عليه ضد ما اقتضاه حقه فيبدل الذم مدحاً، والتكبر تواضعاً.

2- عدم استماع الحاقده لأحاديث الذم أو الانتقاص عن الحقود عليه، فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإنني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» [أبو داود].

3- التهادي بين الطرفين، فقد جاء في الحديث: «تهادوا تحابوا، تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر» [الترمذي]، أي غشه ووساوسه، وقيل: الحقد، وجاء الحديث بصيغة «تهادوا» يحمل معنى المفاعلة في إشارة أنه ينفع الحقود عليه أن يهدي الحاقده ليخفف من وطأة حقه، وينفع الحاقده أن يهدي الحقود عليه ليخفف نار الحقد في قلبه ويسلم صدره.

4- اللقاء وإفشاء السلام والمصافحة، أخرج الإمام مالك في الموطأ عن عطاء بن أبي مسلم الخراساني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا، وتذهب الشحناء».

5- الإكثار من ذكر الله، إذ الحقد مرض قلب مظلم، وإنما ينير القلب ويطهره الذكر. ومهما يكن من أمر فإننا على موعد مع ليلة المغفرة يتبعها أيام رمضان ولياليه العظام، والمأمول من كل ظالم أو معتد أو مسيء أن يسترضي خصمه ليزيل الأحقاد، والمأمول من كل حاقده من دون سبب إلا سواد نفس وظلمة قلب أن يرمي حقه وراء ظهره، وأن يبر الحقود عليه ليبدل الذم مدحاً والكبر تواضعاً والقطيعة وصلاً.

لا يحمل الحقد من تعلق به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا».

والحمد لله رب العالمين